

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 5 (2009) : 107 - 118
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

سقوط الدولة الحيثية 1200 ق م:
فشل سياسي أم انهيار بنية بشرية

محمد تكيالين
قسم التاريخ المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة

أبرز ما يميز تاريخ الشرق الأدنى القديم مع بداية القرن 12ق م، تعرضه لانقلابات سياسية وبشرية كبيرة، أثرت على جل وحداته السياسية القائمة آنذاك، سواء الإمبراطورية منها أو دويلات المدن الصغرى.. انقلاب سريع ومفاجئ، جاء نتيجة تدفق موجات بشرية كبيرة قادمة من الغرب عبر منطقة المضايق الأناضولية، عرفت عند المؤرخين باسم شعوب البحر، واستطاعت أن تحدث تغيرات سياسية كبيرة على أوضاع الشرق الأدنى، ودمارا شبه شامل، لم تكد تنجو منه منطقة حلت بها فلولهم، الأمر الذي تسبب في ظهور خريطة جيوسياسية جديدة آنذاك.

اتسمت تلك الأحداث بطابعها الفجائي والعدواني، وقد تأكد ذلك من سلوكات عناصرها التي كانت تزحف باتجاه الشرق والجنوب متحدية كل العقبات، غير مبالية بقوة وبطش خصومها في آسيا الصغرى، ومصر، وفينيقيا، حتى أنه يمكن تمثيلها بالسيل الجارف الذي يحطم كل شيء يعترض مجراه.

وليس من الخطأ القول أن مثل تلك الأحداث الفوضوية، تكون قد عجلت بانهيار الكثيرين وزوالهم، أمام ضرباتها العنيفة، بالأخص منهم، أولئك الذين لم يكونوا مستعدين للمواجهة، وبوغتوا على حين غفلة من أمرهم. وهو فعلا ما حصل مع دولة الحيثيين، التي راحت ضحية سهلة جدا لذلك الواقع.

لقد كان سقوطا مأساويا ومفاجئا لإمبراطورية كبيرة، لم تكن مؤهلة لذلك المصير. بعد أن كانت هي الدولة القوية، المهيمنة على بلاد الأناضول وسياسة الشرق

القديم لتختفي فجأة، ونهائيا، من الخريطة السياسية، بعد حوالي أكثر من خمسة قرون من الوجود القوي والتحدي الصارم لخصومها الأقوياء المحاذين لحدودها، وهي التي كانت تمثل قوة التوازن الإستراتيجي في وجه الأشوريين، ببلاد الرافدين، وقوة مصر الفرعونية في منطقة وادي النيل.

قد يتبادر إلى الأذهان أن مثل هذا المصير الذي آلت إليه تلك الدولة، لم يكن بالأمر المستحيل أو الغريب طبعا. لكن الشيء الملفت للانتباه هو أن امبراطوريات أخرى مجاورة لها تعرضت لنفس النكبة، ولم تكن بأحسن حال منها، من حيث القوة العسكرية والوضع الاقتصادي، كالدولة المصرية مثلا. فقد كانت كلا من منهما تعيشان مرحلة من التراجع النسبي في قواتهما، لكن ليس إلى الدرجة التي تعجل بالانهيار والاختفاء الكلي بمجرد تلقي أولى الضربات. ولو أن الدلائل التاريخية تشير إلى أنه بعد حوالي عشرون سنة من الازدهار عاشتها الدولة الحديثة حتى سنة **1260** ق.م بدأت فعلا، سلطة الملوك فيها بالتراجع وتناقصت ممتلكاتهم وظهرت سلالة شوبيلوليوما ضعيفة، وانعدمت القدرة لديهم على مواجهة المشاكل الداخلية، عكس فراعنة مصر الذين نجحوا في إبعاد الخطر عن بلدهم ولو بصعوبة كبيرة جدا. مما يدفع إلى التسليم بوجود قضية جوهرية فرقت بين الدولتين في مواجهة تلك الشعوب، تتمثل أساسا في دور الجبهة الداخلية للدولتين.

لذلك فإنه من غير المنطقي التسليم بأن نهاية تلك الإمبراطورية كان نتيجة لقوة الغزاة المتوحشين، خاصة إذا كنا قد أشرنا سابقا إلى مدى قوتها العسكرية التي لم يكن يستهان بها، كما أن أوضاعها الاقتصادية كانت من الأهمية والمكانة ما جعلها تفرض حصارا اقتصاديا على غيرها من الدول المجاورة لها مثل الدولة الآشورية. دون أن ننسى التذكير بأنها كانت الدولة الوحيدة التي تمتعت بحق باحتكار سر صناعة الحديد بمناجمها في الأناضول. وأمام ذلك الواقع يبقى الواقع البشري الداخلي المتميز بطابعه الفسيفسائي محل نقاش وتساؤل عن الدور الذي يمكن أن ينسب إليه في ذلك الانهيار الكبير الذي نحن بصدد الإشارة إليه.

الآشوريون مصدر خطر في الشرق:

بالنسبة للحيثيين لم تكن التطورات السياسية الجديدة التي طبعت نهاية القرن **13** ق م في صالحهم، كما أن وضعيتهم الجيوسياسية لم تكن متميزة بحيث توفر لهم الأمن والسلم اللازمين. فبمجرد أن تمكن الأشوريون من الانتهاء من قهر خصومهم من القوى المناوئة لهم في الشرق الأدنى،

بالأخص البابليين منهم، حتى حولوا وجهتم نحو منافسيهم إلى الغرب. واستطاع الملك شل مناصر القوي من تحقيق انتصار ساحق ضد الحيثيين والحوريين على السواء. ويعتبر ذلك الانهزام، الوحيد، الذي مني به الحيثيون تحت قيادة الملك حاتوشيل الثالث، وإلا كان بإمكان هذا الأخير أن يترك لابنه توتحاليا الرابع 1260 ق م دوله تتمتع بالاستقرار والقوة اللازمتين للإستمرار ومرهوبة الجانب.

والأمر نفسه يمكننا ملاحظته عند وفاة الملك توتحاليا الرابع، فلم تكن الأمور آنذاك بأحسن مما نعتقد، وعليه لم تكن إمبراطورية الحيثيين في وضع يجعلها في مأمن من التهديدات الأشورية وهجماتها العسكرية بين الحين والآخر.

بالمقابل لم تكن السلوكيات الحيثية توحي بالعدائية اتجاه خصومهم، بقدر ما كانت تدل على ميل كبير إلى ترجيح الخيار الدبلوماسي وتفضيل الحكمة والتعقل في علاقاتها مع الأشوريين. فعند اعتلاء الملك تيكولتي نيرورتا العرش أرسل إليه الملك توتحاليا الرابع التهاني بمناسبة جلوسه على عرش آشور، غير أن القيادة الأشورية لم ترد بالشكر، ولكنها[1] ردت عليه باجتياح المناطق الواقعة إلى الغرب منها مهددة حدود جيرانهم الحيثيين. وهي بذلك إشارة صريحة إلى أن تيكولتي نيرورتا لم يكن يرغب في إقامة علاقات ودية خالصة مع جيرانه، وميله إلى المواجهة العسكرية، وهي السلوكيات التي تميز بها الأشوريون عبر تاريخهم الطويل، بتفضيلهم لأسلوب التوسع والمواجهة العسكرية، بالرغم من إدراكه الكامل بإمكانية أن تشكل تهديدات الملك الحيثي خطرا كبيرا عليه إذا ما رد عليه بإعلانه الحرب. وقام باحتلال مدينة ألزي ثم عبر الفرات للهجوم على الأراضي الخاتية، لولا تعقل توتحاليا الرابع الذي قبل بإلغاء الاتفاق الموقع بينه وبين الملك العموري بشأن الحصار الاقتصادي ضد بلاد آشور[2]

في تلك الأثناء، وتزامنا مع التطورات السياسية والعسكرية التي أصبحت تعيشها الدولة الحيثية، عادت مع نهاية الألف الثانية ق م، الهجرات البشرية تتدفق على الشرق الأدنى القديم قادمة من أوروبا تحمل معها موجات جديدة من الهندوأوروبيين، المعروفة باسم الآخيين. سالكة وجهات مختلفة عبر البر والبحر. غير أن جميعها كان يركز وجهته على مناطق تواجد المراكز

الحضارية المعروفة بثرائها وازدهارها الكبيرين، بجنوب غرب آسيا ومصر وفينيقيا...

أمام خطورة تلك الأوضاع لم تكن السلطة الحاكمة في العاصمة الحيثية بوغازكوي مدركة لما يجري في الغرب وغير آبهة بتلك التطورات الخطيرة التي تستعد للعصف بها، في وقت يجمع فيه المؤرخون على تراجع هيبة وقوة حكامها الذين لم يعودوا قادرين على التحكم في زمام الأمور مثلما كانت عليه الأحوال في عهد الملك

الكبير شوبيللوليوما. وليس غريبا القول بأنه يمكننا الإشارة إلى أن نهاية حاتوشيل الثالث في 1265 ق م، كانت بمثابة نهاية الدولة الحيثية، على الرغم من تعاقب ثلاثة ملوك آخرين على سدة الحكم. إلا أن قلة الكفاءة، واللامبالاة بما يحدث من تطورات سياسية على حدودهم الغربية والجنوبية الغربية جعلت الأمور تفلت من أيديهم. بالرغم مما حققه بعضهم من إنجازات مثل الملك توتحاليا الرابع الذي ورث إمبراطورية واسعة ومشاكل أقل مما عاشه أجداده من قبل على المستوى الداخلي والخارجي.

لكن مهما يكن من أمر ضعف هؤلاء الحكام وتصرفاتهم فإنه لابد من الاعتراف أن العاصفة البشرية التي أحدثتها شعوب البحر، وأخذت اتجاهها نحو آسيا الصغرى ومصر وفلسطين، كانت أقوى بكثير من براعة ملوك خاتي ومصر. هذه الأخيرة التي بدأت تشهد قدوم هؤلاء الأقوام منذ عهد سيتي الأول، مختلطين باللبيبين وتصفهم الآثار المصرية في الكرنك بملامح مغايرة للسكان الأصليين، كالشعر الأصفر، والأعين الزرقاء وقد أطلق عليهم المصريون اسم التحنو[3].

محاولات شعوب البحر الوصول إلى مراكز الحضارة في الشق الأدنى:

كثيرا ما تمت الإشارة في الكتابات المصرية إلى وجود عناصر من المرتزقة تشارك في التحالف الذي كونه موتيللي أثناء المواجهة المصرية الحيثية في قادش 1276 ق م، مثل عناصر الدردانيين واللوكا، والشاكلاشا... أما فرعون مصر آنذاك فيشير من جهته بأنه خلال هجوم الليبيين على دلتا نهر النيل 1227 ق م كانت تساعدهم عناصر بشرية تتميز عن الليبيين ببشرتهم البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزرقاء وقد أطلق عليهم المصريون اسم الشماليين أو شعوب الشمال.

بينما أعطت المصادر الأناضولية المتمثلة في ألواح بوغازكوي معلومات هامة عن دولة كبرى وقوية في منطقة بحر ايجة خلال القرنين 14 و13 ق م. ويظهر هذا البلد واحدا من أكبر دول المنطقة وأقواها. ذلك أن مكانتها الكبيرة آنذاك، فرضت على مورشيلي الثاني أن ينادي ملكها بلقب "أخي" ويذكر أنه قام بنجدة كل من شعب اللوكا والأهاياوا ضد ميلافندا[4]. وفي عهد نفس الملك كان على رأس مدينة فيلوسا حاكم يسمى الكسندروس[5]. ومن الشروط التي وردت في الاتفاق الذي وقعه توتحالياIV مع ملك العمورو، يطلبه فيها عدم السماح بنقل البضائع القادمة من مملكة الأهاياوا إلى بلاد أشور. ويضع ملكها في مرتبة الملوك الأربعة الكبار في الشرق الأدنى آنذاك إلى جانب كل من فرعون مصر وملك أشور وحاكم بابل[6].

غير أن السؤال المطروح حول الأخيين ودورهم في حركة شعوب البحر، هو هل أن شعوب البحر التي قامت بالانتشار في المناطق المجاورة لبلاد الإغريق وإيجة هي نفسها الشعوب التي عرفت لدى المصريين والحيثيين باسم شعوب وبلد الأخيين؟ وتشمل سكان كريت وبحر ايجة وسواحل جنوب آسيا الصغرى ويطلق عليها المصريون اسم كفتي **kefti**. أم أن الأمر هو غير ذلك؟

مازال الاختلاف قائما حول تحديد هويتها نظرا لعدم التأكد الكامل من مواطنها الأصلية لظهورها الشبه المفاجئ عند بداية تنفيذ مخططها، وتنوع العناصر البشرية التي تتكون منها. وتم الاتفاق على اعتبارها جماعات من الأخيين وبقيت بذلك حقائق أخرى كثيرة حولها مجهولة، كالدوافع التي أدت بها إلى الهجرة، والمناطق التي نزحت منها ...الخ

ومع ذلك طرحت بعض الفرضيات حول الأسباب التي دفعت بهم على الهجرة من مواطنهم نحو الشرق القديم.حيث يرى المؤرخون أن انتشار تلك الكتل البشرية الضخمة عبر المناطق الواقعة في شرق المتوسط، كانت نتيجة لضغط كبير تعرض له آخييي جنوب غرب آسيا الصغرى من طرف قادمين جدد من الشمال. مما جعلهم يضغطون بدورهم على شعوب المناطق التي حلوا بها ثم الإنسياح أكثر نحو الشرق[7] حيث ظروف الحياة الحسنة.

ومن جهته يؤكد ريمون ويل: أن الجماعات الهندوأوروبية التي انتشرت في آسيا الصغرى واليونان، نزلت من المناطق الشمالية لبلاد الإغريق ومناطق البحر الأسود. وكان جميعها يشترك في حمل اسم "آخيين".

فالذين جاؤوا من الغرب هيمنوا على اليونان الشمالية والبيلوبونيز وارتبط اسمهم بتاساليا وبثينا وشمال البيلوبونيز. لكن هل بالإمكان اعتبار أن أولئك الذين وصلوا إلى المناطق الشمالية للبحر الأسود كانوا هم كذلك من العنصر الآخي؟ خاصة إذا عرفنا وأن أسماء قريبة من الأسماء الآخية وجدت في مناطق مختلفة حول بحر أزوف. وبذلك تكون الموجة الأولى، هي التي أدت إلى وصول آخييي تراقيا الذين تخطوا المضائق إلى آسيا الصغرى. أما جماعات البحر الأسود فهي التي جاءت بالأرمينيين وعند بداية القرن 12 ق م.

مصر والحيثيين في مواجهة استيطان أم ضحايا أزمات اقتصادية؟

اتضحت دوافع تلك الحركات على مصر، ولو أننا كنا أشرنا نشير بأن ظهورهم كان قد بدأ منذ سيتي الأول، حيث وجدوا كحلفاء لليبيين[8].

وفي كل الأحوال يصبح من المؤكد إن تلك الهجرات الجديدة قدمت من أوروبا وأدت إلى نزول الدوريين في الهلسبونت والسيكلاد وكريت، ثم دخول جماعات أخرى كبيرة قادمة من تراقيا عبر الهلسبونت إلى الأناضول، فعرضت أخيبي جنوب آسيا الصغرى للضغط فأدت حركة الشعوب التاريخية تلك[9]، إلى قلب الموازيين كلية في الشرق الأدنى القديم.

وإذا كانت أسباب تلك الحركات البشرية تختلف فيما بينها، إلا أن جميعها يرتبط بعامل جوهري يتمثل في تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلدانها الأصلية الذي ترتب عنه انتشار المجاعات القاسية، خاصة في بلاد الإغريق. وأدى ذلك بدوره إلى تمرد الطبقة العامة ضد النظام الملكي. فدفع انعدام فرص العيش أمام الكثير منهم إلى الإنسياح بأعداد كبيرة للبحث عن مواطن جديدة لهم. وبحكم العلاقات التي كانت موجودة بين شعوب البحر ومصر، والساحل الفينيقي وآسيا الصغرى، فإنهم كانوا يدركون جيدا وجهتهم وعلى علم بالرخاء الذي تعيشه مصر وسكان بلاد الرافدين.

ضمت عناصر تلك الموجات البشرية الكبيرة التي تدفقت على المناطق الساحلية ومدنها في آسيا الصغرى وشمال دلتا مصر، محاربين إقطاع يخربون كل شيء في طريقهم ولم تكن هناك قوة قادرة على التصدي لهم. جاؤوا في جماعات يحملون معهم أزواجهم وأولادهم وعرباتهم التي تجرها الحيوانات، تحمل أمتعتهم، مما يعني أن رغبتهم كانت الاستقرار، ولكن بمجرد استقرارهم تأتي مجموعة جديدة فتدفعهم للهجرة فيواصلون سيرهم.

انتهج الغزاة الجدد أسلوب التدمير ولم تكن الدولة الحيثية ضحيتهم الوحيدة، إذ مكنتهم أسلحتهم وأدواتهم الحديدية من تحقيق انتصارات كبيرة، فخربوا عدة مدن، كما سحقوا طروادة والكثير من الشعوب الإيجية وراحوا يلاحقونهم عبر الجزر والسواحل[10]. غير أن المؤرخ أرنولد توينبي يرى بأن تلك الشعوب لم تكن تقصد الغزو بل الهجرة. ولكن كيف نفسر تعرضهم بالتخريب لكل ما وجدوه في طريقهم؟ حيث دمروا الكثير من المراكز الحضارية في الأناضول وقليقيا وقرقميش وآلآسيا وفينيقيا...

والسؤال المطروح دائما هل حقا يمكن الاكتفاء باعتبار أن انهيار الدولة الحيثية في بداية القرن الثاني عشر ق م سببه تفاقم الأزمات وازدياد الحاجة إلى الموارد الغذائية التي أدت إلى ظهور هجرات بشرية باحثة عن مناطق أفضل لتأمين حياة أفرادها. ولما لاحت

في الأفق إشارات الفوضى والاضطراب وجد شيبيللوليوما الثاني نفسه مضطرا للتوجه نحو الغرب للمواجهة العسكرية، فحارب في البحر ونزل بقبرص واستطاع التصدي لهم مؤقتا ولكنهم تمكنوا من النيل من المناطق التي وطأتها أقدامهم في البلاد ثم تخريبها.

رمسيس الثالث يتصدى ويركز على جبهته الشعبية الداخلي للمقاومة:

ركزت مصر منذ البداية على وحدتها البشرية التي ساعدتها بدرجة كبيرة على إبعاد الخطر الخارجي نتيجة تماسك أبنائها والشعور بالمصير الواحد الذي ينتظرهم. وكانت البداية مع الفرعون سيتيSETI I الذي نجده يجند شعبه وجيشه منذ السنة الخامسة من حكمه لمواجه أولئك الغزاة من شعوب البحر، ويضطر للتصدي لهجمات الشعوب الليبية في الشمال الغربي من حدود مصر، ويكرر رمسيس الثاني نفس السياسة ولم يكتفي بقهرهم فقط بل أدمج الكثير منهم في جيوشه لأنهم كانوا مستعدين لتقديم خدماتهم لمن يوفر لهم العيش، بالرغم من أنه لم يستطع منع توغلهم السلمي في الدلتا، وعادت المواجهة معهم في عهد "مينبتاح" سنة 1229ق م، الذي حارب بدوره "الليبو" المدعمين بشعوب البحر أو شعوب الشمال.

أما أكثر الفراعنة تخليدا لمواجهاتهم مع شعوب البحر، هو ما تركه لنا الفرعون رمسيس III. فخلال سنوات حكمة الخامسة والثامنة ألحق بشعوب البحر خسائر كبيرة، وخلدها بدوره على جدران المعابد، وجعلت منه تلك المواجهات أحد أكبر فراعنة أسرة الرعامسة الشهيرة.

كان رمسيس الثالث يتوفر على معلومات كافية حول ما أقدمت عليه تلك الشعوب من تدمير للمناطق التي وصلوها. فاستعد لها جيدا وهو يدرك أن الغزاة متحدين، وعدوانيين ومحاربين أقوياء، فقام بتدعيم بحريته ببناء سفن جديدة، وأصبح مقتنعا بأن الصلح والسلم معها أمر غير وارد إطلاقا. وأمر بتعبئة المزيد من الشباب والجنود المرتزقة الأجانب من الليبيين والأسيويين. وعندما يصل إلى ميدان الحرب لا يخفي الفرعون شيئا عن جنوده ليعلمهم أن هؤلاء يحطمون كل شيء في طريقهم وأن أصدقاء مصر قد اندثروا أمامهم وأن مصير البلاد في خطر كبير فلا بد من الصمود مهما كانت الظروف.

أما على حدوده البرية فقد شدد الحراسة، ولما حاول الغزاة دخول مصر عبر مصبات نهر النيل وجدوا في مواجهتهم حاجزا قويا من السفن وجرت بينهما أحد اكبر معارك مصر البحرية في التاريخ(11).

وبالرغم من الهزائم الثلاث المتتالية التي لحقت بالليبيين المدعمين بشعوب البحر إلا أنهم استمروا في التوغل سلميا وتحول أسراهم إلى عبيد للمصريين. وتمكن بعضهم من الارتقاء في السُلم الطبقي للمجتمع المصري. وإن لم يتمكنوا من فرض أنفسهم عسكريا، إلا أنهم كونوا فيما بعد دولة داخل دولة بانخراطهم في الجيش واستطاعوا الوصول إلى الحكم سنة 945 ق م(12) وأسسوا لهم أول أسرة ليبية فرعونية حكمت مصر بزعامة شيشنق.

ما يمكن ملاحظته أن اهتمام رمسيس الثالث بالدفاع عن أملاك مصر في فلسطين وجنوب سوريا كان اهتماما بسيطا. وهي التي نكبت بدورها بنفس القساوة التي نكبت بها آسيا الصغرى ومنطقة ايجة(13)

لقد تركت شعوب البحر انعكاسات كبيرة على الشرق الأدنى القديم وأدت إلى تحولات جذرية على واقعه السياسي والاقتصادي. فقد مثل تدمير الإمبراطورية الحيثية الكبيرة التي تهاوت نهائيا وبشكل مفاجئ. تحولا كبيرا في التاريخ العالمي.إذ أصبح مركز الأناضول ولعدة قرون منطقة فراغ ثقافي(14). ومن جهته عرف الساحل الفينيقي انهيار عدة مدن بشكل نهائي مثلما كان الحال عليه مع مدينة أوغاريت التي لقيت حتفها على يد شعوب البحر، وتفتت بذلك العالم الكنعاني إلى إمارات عديدة..

أما بقايا الحيثيين فقد انتقلت إلى الجنوب وكونت كنفدالية تضم الحيثيين والإفرنجيين والسوريين واتخذت مدن حلب وقرقميش مراكز لها، وعليه قامت عدة إمارات حيثية على إنقاذ الإمبراطورية المنهارة، سواء في أناضوليا أوفي شمال سوريا مثل هيلاكو، سمعال، قورقوم، كوموه، أونكي، حماه وقد عرفوا باسم **neo hittites**(15).

وتأثرت بدورها الأوضاع الاقتصادية في المنطقة كلها، فقد أدى هجوم شعوب البحر على مصر إلى أزمة اقتصادية كبيرة بسبب تعطل النشاط التجاري في منطقة البحر المتوسط كله نتيجة لانعدام الأمن.

أما النتيجة ذات الأهمية العالمية فهي القضاء على الحظر الذي كان مفروضا على انتشار تقنية إنتاج الحديد المطاوع الذي كان كالبرونز في قساوته ويبدو أن التحكم في تلك التقنية قد اكتشفت في آسيا الصغرى(16).

وبنفس الأسلوب الذي اتبعه الحيثيون في تثبيت أنفسهم على السكان الخاتيين الأوائل فإن مصيرهم كان شبيها بأولئك السكان الذين فقدوا سيادتهم من قبل لصالحهم.

وإذا كانت الظروف في القرن 15 ق م قد مكنت الحيثيين من العودة إلى الساحة السياسية بقوة فإنه في القرن 12 ق م كان الانهيار دون رجعة فالملكية الحيثية آنذاك لم تكن في مستوى عظمة الحدث عكس ما كانت عليه الظروف مع فراعنة مصر الذين جنبوا بلاهم كارثة حقيقية، فزالت بذلك الدولة الحيثية من خارطة الشرق الأدنى.

إن الإنجازات التي حققتها الملكية الحيثية في آسيا الصغرى كانت كبيرة حقا وليست سهلة الإنجاز بمكان، كما يمكن أن نتصوره، إذ مكنتها من البقاء على الساحة السياسية للشرق الأدنى حوالي سبعة قرون كاملة لتلعب الأدوار الأولى في رسم وتحديد أحداث تلك المنطقة. غير أنه من ناحية أخرى، يحق لنا أن نعتبر بأن الدولة الحثية لم تكن على درجة كبيرة من القوة والتطور، مما يمكنها من الهيمنة على شعوب الشرق القديم وفرض إرادتها. وإنما كان تطورها مرحلي وغير منتظم، فبين القرن 18ق.م والقرن 16ق.م ميز أوضاعها السياسية التذبذب والصراع على العرش بين سلالاتها وقد كلفها ذلك، الاختفاء على الساحة السياسية لما يقارب، 200سنة من 1500ق.م إلى 1450ق.م، ولما عاودت إلى النهوض خلال القرن 14ق.م استطاعت تصدر الأحداث في فترة ملك واحد وهو شوبيلوليوما، لكن الأمور لم تستمر بنفس الوتيرة مع من جاؤوا من بعده من الملوك واكتفوا بالعمل على الصراع من أجل البقاء ومحاولة الدفاع عن مكتسبات سابقيهم من الحكام. ومع ذلك فقد أظهر بعضهم عجزا في انتهاج سياسة خارجية قوية ومواكبة التطورات السياسية الخطيرة التي كانت تعرفها المناطق الحدودية لهم مما عجل بنهايتهم المفاجأة.

بنية بشرية فسيفسائية هشّة:

لقد أظهر ملوك الدولة الحيثية الكثير من المتناقضات في سياساتهم الداخلية والخارجية، فإذا كانوا قد أفلحوا في الهيمنة على غيرهم بسبب يسر صناعة معدن الحديد فإنهم على المستوى الحضاري، وخاصة في مجالي الثقافة والاقتصاد، كانوا أضعف بكثير من جيرانهم، الأمر الذي لم يسمح لهم بتسيير أمم أكثر تحضرا منهم. وفي الوقت نفسه وجدوا أن قوة الحديد لا تكفي لترسيخ أسس الحكم لذلك اندثروا بسرعة أمام بني جلدتهم خلال القرن 13ق.م بسبب استعمالهم لنفس السلاح.

لم يستطع ملوك الحيثيين تكوين وحدة بشرية داخلية متماسكة، لذلك انعكست سياسة الإخضاع بالقوة التي انتهجوها اتجاه الشعوب الأخرى المجاورة لهم بشكل سلبي وخطير على تماسك الدولة الداخلي. وإذا كانوا قد أفلحوا في بداية تاريخهم من طرد

السامبين من الأناضول فإنهم كانوا دائمي التحرش ضدهم، على عكس الساميين والمصريين الذين كانوا لا يجدون في الدخول في صراع مع الحيثيين بالأناضول مبررا لذلك. مما يعني أن هذا الشعب الأخير كان تحركه الرغبة في الاستفادة من خيرات الشرق القديم، فاهتم بجنوبه الشرقي وأهمل الغرب حيث تعرض للكارثة. وعلى ضوء ما ذكرناه يمكننا أن نوجز بعض نتائج سلبيات سياسة الملوك الخاتيين التي انتهت إلى انهيار دولتهم:

– أثر الجانب البشري للدولة الحيثية كثيرا على إستمراريتها وعليه أدى انعدام التماسك للجبهة الداخلية إلى التعجيل بتحللها وزوالها. ذلك أنه من البديهي جدا أن تؤدي نتائج الضم عن طريق القوة التي تعرضت له بقية الشعوب الأخرى في أناضوليا من طرف الحيثيين إلى عدم الانصهار مع بعضها فحاولت كل فئة الحفاظ على مميزاتها وخصائصها الحضارية، تتحين الفرص للإنفصال، وكان التماسك الذي ظهرت به تلك الدولة في بعض مراحل تاريخها هشا جدا. وقد رأينا كيف أن الملوك الحيثيين كانوا في صراعات مستمرة مع مختلف القبائل ولقرون عدة دون التوصل إلى التخلص منه. وبقيت مشاكل شعوب الكاشكا والأرزاوا والكيزوفانتا مطروحة باستمرار حتي زوالها، وبالمقارنة مع مصر فإن تماسك الجبهة الداخلية لمصر ووحدتها كان عاملا رئيسيا في استمرارها.

ساهم الوضع الجغرافي بدرجة معتبرة في تعرض الحيثيين لكارثتهم تلك. فالقرب الجغرافي مع أوروبا سهل كثيرا عملية الاتصال مع شعوب جنوب شرق أوروبا، على عكس الحضارات الشرقية الأخرى، في مصر، وبلاد الرافدين، لذلك أمكن القول أن طبيعة مصر الصحراوية التي لم تكن شعوب البحر على علاقة سابقة بها أو دراية جيدة

بظروفها مكنتها من التخلص، وتفادي شر تلك الفوضى. أما آسيا الصغرى، فقد كانت عملية الهجوم سهلة جدا حيث التشابه الكبير في الطبيعة مع مواطن الهند أوروبيين الجدد في أوروبا، ومما لا يترك مجالا للشك أن صحراء مصر وطبيعتها ثم قوة جيشها كانا لهما الأثر البالغ في الحفاظ على سلامتها من شعوب البحر.

إن خيرات الشرق الأدنى القديم التي بهرت ملوك خاتي جعلتهم يركزون كل جهودهم للوصول إلى مشاركة أهله في ذلك. فصبوا كل اهتمامهم اتجاه الجنوب الشرقي حيث الساميين وعملوا على تمتين تواجدهم بالقرب منهم. لكنهم أهملوا الاهتمام بحدودهم الغربية، حيث باغتتهم موجات شعوب البحر العنيفة، والقوية بأسلحتها المعدنية. وحتى تلك الشعوب لم يكن سبب مجيئها للمنطقة يختلف عن السبب الذي جاء بالحيثيين أنفسهم خلال بداية الألف الثاني ق.م وكان ذلك من

الأخطاء الكبيرة التي ارتكبوها فكانت النهاية. لكن من ناحية ثانية مكنتهم علاقاتهم بالشمال السوري من نقل مركز تلك الحضارة إليها ليبدأ بذلك عهد الدولة الحيثية الثالثة (Néo hittites) لكن في ظروف صعبة جدا تمثلها الهيمنة الأشورية وتوسعاتها.

الهوامش

* أبن الملك حاتوشيلي انهزم في معركة نهارينا ضد الأشوريين مما اضطره إلى الحصار الاقتصادي. تسبب له ذلك الانهزام في محاولة اغتصاب للعرش ولكنه استطاع الانتصار في النهاية ض على أعدائه ثم قام بمحاولة فعادة بناء العاصمة.

[1] **Hawkins J. D. (1974)، Assyrians and Hittites. Iraq 36، p. 67**

[2] نص وقع ها الاتفاق بين توتحاليا والملك العموري شوشقانوفا، مضمونه " بما أن ملك آشور عدو ي فليكن عدوك. عليك بمنع دخول تجارتك إلى بلده. ولا تتسامع مع رعياه من التجار في بلدك ولا تسمح لهم بدخولها. إذا جاء أحد منهم إلى بلدك فاقبض عليه وأرسله إلي"

[3] **Lalouette (claire) ،L'empire des ramses، ed- Fayard، Paris، 1986، P 96**

[4] **Raymond weill ،les acheens d'asie mineur ،journal asiatique ،T – CCXVI ،1930 ،p.88**

[5] **Cavaignac Eugene ،les annals de murshil II ،Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Oriental ،T XXVI ،1929،p 186**

[6] **Weill (R) ،Opcit، P8**

(*) الأخيين تعني شيء أو مجموعة أشياء هيللينية لا تقبل الشك محصورة في إطار جغرافي معين. ويتفق المؤرخون أنها تشمل بلاد الإغريق ومناطق في جنوب آسيا الصغرى، وبعبارة أخرى هي الجماعات الناطقة باللغات الإغريقية المتواجدة في تلك المنطقة، وعموما ما فإن اسم الأخيين يشمل شعوب بحر ايجة وجنوب " تساليا وشمال البيلوبونيز وسواحل آسيا وسواحل آسيا الصغرى، خاصة الجنوبية الغربية منها

[7] **Boulous (Jawad) ،Les peuples et les civilisations du proche Orient TI. TII، Mouton et co، Paris، 1961. ، P204**

[8] **W eill(R) – les acheens d'asie mineur، J. A ،T CCX VI،. P. 101**

9 Goetze (G)، Kizzuvatna and the problems of hittite geographie ،yale oriental series rescarches ،V -XXII ،Y.U.P، 1940.. P. 65

1 توينبي ارنولند، تاريخ البشرية، ص **145**

10 Jacq Christian ،l'Egypte des grands pharaons ،lib- accademique Perrin، Paris، 1981, p 332

11 Jacq (ch) ،Opcit ،p 332

12 توينبي ارنولند، تاريخ البشرية، ص **167**

13 Bittel (Kurt) ،Les Hittites ،collect- l'univers des formes، gallimard ، Paris 1976. ،p 19

14 Clancier.Philippe، syrie du nord entre Hittites et Assyriens، HALUKA

Janv. 1999، ،p65

15 توينبي ارنولند، تاريخ البشرية، ص 167

16 Clancier.Philippe، syrie du nord entre Hittites et Assyriens، HALUKA Janv. 1999، ،p65